

تفسير الكريم الرحمن

في تفسير كلام المَنَانِ

تأليف
العلامة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدِي

وَقَدَّمَ لَهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَقِيلٍ
فَضِيلَةُ الشَّيْخِ
عَمَّادُ الصَّالِحِ الْفَيْهِي

اعْتَنَى بِهِ تَحْقِيقًا وَمُقَابَلَةً
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَعْلَانَ الْكُوَيْطِيُّ

طَبْعَةُ جَدِيدَةٍ مُحَقَّقَةٍ عَنْ نَسْخِ خَطِيئَةٍ مَعَ زِيَادَاتٍ
طَبْعَ الْأَوَّلِ مَرَّةً

مَوْسَسَةُ الرِّسَالَةِ

نبذة عن الكتاب :

يقدم هذا الكتاب تفسيرًا كاملاً للقرآن الكريم بأسلوب عصري، سهل، وواضح في الوقت نفسه، وقد جاء الكتاب مرتبًا وفق ترتيب سور المصحف الشريف، قوامًا بين التطويل والإيجاز؛ مما ييسر اقتناؤه وقراءته للجميع. ومما يميزه: سلامة عقيدته، حيث يتحرى مؤلفه فيه الالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة لا سيما في فهم أسماء الله تعالى وصفاته. كما قدم المؤلف له بفوائد تتعلق بعلم التفسير ولطائف لابن القيم فيه، وطريقته فيه أنه يذكر عند كل آية ما يحضره من معان، ولا يكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ ويعتمد إلى ذكر الآيات أحيانًا. ويعد الكتاب من أفضل كتب التفسير؛ حيث يتميز بالعديد من المميزات منها السهولة، وتجنب الحشو والتطويل، وتجنب ذكر الخلاف، والسير على منهج السلف، ودقة الاستنباط، ومنها أنه كتاب تفسير وتربية.

نبذة عن المؤلف :

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي مفسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد. ولد سنة 1307هـ) ووفاته في عينة (بالقصيم) وذلك في سنة (1376هـ) وهو أول من أنشأ مكتبة فيها (سنة 1358) له نحو 30 كتابًا.

مقدمة المؤلف :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل و جعله برحمته هدى للناس عمومًا، وللمتقين خصوصًا، من ضلال الكفر والمعاصي، والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها. وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه

من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم، في أخباره، وأوامره، ونواهيته، وأنزله مباركًا، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود؛ لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: **{يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ}**، فهو هاد لدار السلام، مبين لطريق الوصول إليها، وحاتٌ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر منها، وقال تعالى مخبرًا عنه: **{كِتَابٌ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}** فبين آياته أكمل تبين وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلًا كاشفًا للبس، لكونه صادرًا من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه "مجيد" و المجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها، ووصفه بأنه "ذو الذكر" أي يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** فأنزله بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكير فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح لكل خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونورًا، وتبصرة وتذكرة، وبركة وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها. وكان حقيقًا بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك. وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مَطَوَّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مَقْصَر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول - صلى الله عليه و سلم - وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصًا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها فمن وُفق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقًا ومفهومًا، فإذا

بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورًا لا تدخل تحت كسبه.
ولما منَّ الباري علىَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا أحببت أن أرسم من
تفسير كتاب الله ما تيسر، وما من به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة
للسالكين ولأقيده خوفَ الضياع، ولم يكن قصدى في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود ولم أشتغل في
حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذى ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين
خيرًا.

والله أرجو، وعليه أعتمد، أن ييسر ما قصدت، ويذل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله، فلا سبيل إلى
حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله. وأسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم،
وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم. اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين.

ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمسين بالفعل، وخمسين بالأجر والثواب، وحاز من المفاز تلك الليلة، هو وأمته، ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الانزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه. وقوله: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً، لكثير من أنبيائه وأصفياه.

(٢-٨) ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْكَتَابِ لِنُفِئِدَنَّهُ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا كَلِيمًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَاسٍ شِدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَات وَعْدًا مَّقُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَوْكَرَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنَاتٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلَّمْنَا نَبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُرَحِّمَهُ ۝ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝ كَثِيرًا مَّا يُقِرُّنَ الْبَارِي بَيْنَ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَنُبُوَّةِ مُوسَى ﷺ، وَبَيْنَ كِتَابَيْهِمَا وَشَرِيعَتَيْهِمَا، لِأَن كِتَابَيْهِمَا أَفْضَلُ الْكِتَابِ، وَشَرِيعَتَيْهِمَا أَكْمَلُ الشَّرَائِعِ، وَنُبُوَّتُهُمَا أَعْلَى النَّبَوَاتِ، وَأَتْبَاعُهُمَا أَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق.

﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي: وقلنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك، ليعبدوا الله وحده، وبنبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلًا ومديرًا لهم، في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئًا، ولا ينفعونهم بشيء.

﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: يا ذرية من مننا عليهم، وحملناهم مع نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فيه التنويه بالثناء

عاقبة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجِرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله، والاستعانة بالله على ذلك، وعدم الاتكال على النفس، فقال:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم، فلم تر منهم قبولًا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئًا ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: شدة وحرج ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن مكروهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين.

والله مع المتقين المحسنين، بعونه، وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يروونه، فإن لم يكونوا يروونه فإنه يراهم. والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل والحمد لله.

تفسير سورة بني إسرائيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة، التي من جعلتها أن ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدًا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا. وهذا من اعتنائه تعالى به، ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوّله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين. وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام. لكن ثبت في الصحيح، أنه أسري به من بيت أم هانئ. فعلى هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تتضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معًا، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء،

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِسْنَاءِ ۚ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ لَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾
وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عَبْدًا لَّنَا ۖ أَوَّلَىٰ بِأُسِّ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ ۖ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

وجعل لهم الدولة.

وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ إلى الإفساد
في الأرض ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم. فعادوا لذلك، فسلط الله
عليهم رسوله محمدًا ﷺ، فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء
الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال:
﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ يصلونها ويلازمونها، لا
يخرجون منها أبدًا. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة، من
العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل. فسنة
الله واحدة، لا تبدل ولا تغير.

ومن نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظلمة عرف
أن ذلك من أجل ذنوبهم، عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب
الله وسنة رسوله، مكَّن لهم في الأرض، ونصرهم على
أعدائهم.

(١٠، ٩) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّرُ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك،
والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن
يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ^(١) أباقهم واستخلفهم في
الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم،
وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في
الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في
الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله
عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلهم
يرجعون فيتذكرون.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون
فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ بعثنا
قدرنا، وسلطنا عليكم تسليطًا كونيًا جزائيًا ﴿عَبَادًا لَّنَا أَوَّلَىٰ بِأُسِّ
شَدِيدٍ﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم،
فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال
دياركم فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام، وأفسدوه
﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم.

واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المصلطين، إلا أنهم
اتفقوا على أنهم قوم كفار، إما من أهل العراق، أو الجزيرة،
أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل، لما كثرت فيهم
المعاصي، وتركوا كثيرًا من شريعتهم، وطغوا في الأرض.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الذين
سلطوا عليكم، فأجلبتموهم من دياركم ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ
وَبَنِينَ﴾ أي: أكثرنا أرفاقكم، وكثرناكم، وقويناكم عليهم
﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم
وخضوعكم لله.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن النفع عائد إليكم،
حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم ﴿وَإِنْ
أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فلا أنفسكم يعود الضرر كما أراكم الله، من
تسليط الأعداء.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة^(٢) التي تفسدون
فيها في الأرض، سلطنا أيضًا عليكم الأعداء.

﴿لِيُسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ بانتصارهم عليكم وسيبكم، وليدخلوا
المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، والمراد بالمسجد،
مسجد بيت المقدس.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي: يخبروا ويدمروا ﴿مَا عَلَوْا﴾ عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾
فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فيدليل لكم الكرة عليهم. فرحمهم

(١) في النسختين: إذا. (٢) في ب: الأخرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٤

سُورَةُ الْاَنْزِلِ

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا تُمَدُّهُمْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَا رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَا رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾ وَفَضَّلْنَا رَيْكَ أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ لَهُمَا جَنَاحُ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتَاكَ الْقُرْآنُ حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ بَذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنْ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

ولذاتها، إلى الآخرة، بوجه من الوجوه. فكم بين من هو في الغرف العاليات، واللذات المتنوعات، والسرور والخيرات والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحداً عدّه.

(٢٢) ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان. فالله، وملائكته، ورسله، قد نهوا عن الشرك، وضموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفاً، وأقبحهم نوعاً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من التعلق بربه. فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا بإذن الله. وكما أن من جعل مع الله إلهاً آخر، له الذم والخذلان. فمن وحده، وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في

عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ○ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفها أمراً قديراً، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد وثمود، وقوم لوط، وغيرهم، ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فلا يخافوا منه ظمناً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

(١٨-٢١) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ○ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ○ كَلَّا تُمَدُّهُمْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَا رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَا رَبِّكَ مَحْظُورًا ○ أَنْظَرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ يخبر تعالى أن ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ الدنيا ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ المتفضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى، أن الله يُعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ أي: يباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله، ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي: مقبولاً مُثْمَنًا، مدخراً، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم. ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلاً يمدد الله منها، لأنه عطاؤه وإحسانه ﴿وَمَا كَانَ عَطَا رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعاً من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضلته وإحسانه.

﴿أَنْظَرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الدنيا، بسعة الأرزاق وقتلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا

جميع أحواله.

(٢٣، ٢٤) ﴿وَقَصَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِؤُلَآئِي إِحْسَنًا إِنَّمَا يَلْبَغُنَّ عِندَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَمِّي وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ لما نهى تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَصَىٰ رَبُّكَ﴾ قضاء ديني، وأمر أمرا شرعيًا ﴿أَنَّ لَا تَعْبُدُوا﴾ أحدًا من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات.

﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَيَالِؤُلَآئِي إِحْسَنًا﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القولي والفعل، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكيد الحق ووجوب البر.

﴿إِنَّمَا يَلْبَغُنَّ عِندَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان، ما هو معروف ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَمِّي﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه. والمعنى لا تؤذيهما أدنى أذية.

﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: ترجمهما، وتكلم لهما كلامًا خشنًا ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه، وتأدب، وتلطف بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما، ذلًا لهما ورحمة، واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤثر عليها العبد.

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتًا جزاء على تربيتكما إياك صغيرًا.

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق. وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية.

(٢٥) ﴿رَبُّكُمْ أَغْلَرُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفْرًا﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكتنه

سرا ترمكم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غُفْرًا﴾. فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبه، ومجبة ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يغفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

(٢٦-٣٠) ﴿وَوَاتِذَا الْقُرْنُ حَفَهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا بُدْرَ تَبْدِيرٍ ۝ إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝ وَإِنَّمَا تَرْضَوْنَ عَنْهُمْ اتِّعَافَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَوَاتِذَا الْقُرْنُ حَفَهُ﴾ من البر والإكرام، الواجب والمستنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمة.

﴿وَالْمَسْكِينُ﴾ آتة حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكنته ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائدًا على المقدار اللائق، فإن ذلك تبذير، وقد نهى الله عنه وأخبر:

﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَفْقَحُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

وقال هنا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فتتفق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي.

﴿فَتَقْعُدَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿تَحْسُورًا﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى، مع القدرة والغنى. فأما مع العدم، أو تعسر النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يُرَدُّوا ردًا جميلًا فقال: ﴿وَإِنَّمَا تَرْضَوْنَ عَنْهُمْ اتِّعَافَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي:

تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر، ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: لطيفاً برفق، ووعد بالجميل، عند سئوح الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾.

وهذا أيضاً من لطف الله تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر، عبادة حاضرة، لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسره له [بسبب رجائه] (١).

ثم أخبر تعالى أنه ييسر الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدره ويضيقه على من يشاء، حكمة منه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُعَادُونَ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ فيجزيهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم، بلطفه وكرمه.

(٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً إِمَّا يَنْتَحِنُوا إِلَيْكُمْ وَإِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم، فهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع. وأخبر أن قتلهم كان خطئاً كبيراً، أي: من أعظم كبائر الذنوب، لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم، والتجروء على قتل الأطفال، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصاً هذا الأمر، الذي في كثير من النفوس أقوى دواع إليه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَحِشَةً﴾ أي: إنمّا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجروء على الحرمه في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفساد. وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بش السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ وهذا شامل لكل نفس ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها من صغير وكبير، وذكر وأُنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس، والزاني المحصن،

٢٨٥ ﴿وَمَا تَعْرَضْن عَنْهُمْ أَيْتَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (٣٨) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٣٩) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٤٠) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً إِمَّا يَنْتَحِنُوا إِلَيْكُمْ وَإِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٤١) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٤٢) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ (٤٣) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٤٤) ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ زُرْعًا بِالْقِسْطِ أَسْرَ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٤٥) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٤٦) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٤٧) ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٤٨)

والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه، إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل وجعلنا له أيضاً سلطاناً قدرياً على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعدم العدوان، والمكافأة.

﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ الولي ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا والإسراف مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل.

وفي هذه الآية، دليل إلى أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص. وأن وليَّ المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ وهذا من لطفه ورحمته

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ والنهي عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ فإن الحكمة، الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أراذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال.

وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات، من الحكمة العالية، التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين، في أشرف الكتب، ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً.

ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك فقال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلْتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: خالداً مخلداً، فإنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله، وملائكته، والناس أجمعين.

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُكُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالْغَدَّ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِنَّا نَعْلَمُ لَنَقُولَنَّ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات، فقال: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: اختار لكم الصفوة والقسم (٢) الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ لَنَقُولَنَّ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ فيه أعظم الجراءة على الله، حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهن الإناث، وهو الذي خلقكم، واصطفاكم بالذكر، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(٤١-٤٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ قل لو كان معي إلهة كما يقولون إذا لا نبغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿سُبْحَنَهُ لَهِ التَّوْحِيدِ السَّبْعُ وَالْأَرْبَعُونَ وَمِنْ فِيهِمْ رُبٌّ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ يخبر تعالى أنه صرّف لعباده في هذا القرآن، أي: نوع الأحكام ووضحها، وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكّر، لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلوكه، وما يضرهم فيدعوه. ولكن أبى أكثر الناس إلا نفوراً عن آيات الله، لبغضهم للحق، ومحبتهم ما كانوا

تعالى باليتيم الذي فقد والده، وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أن أمر أوليائه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه ﴿إِلَّا بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تميته، وذلك ممتد إلى أن ﴿تَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشَدُّهُ﴾ أي: بلوغه، وعقله، ورشدته، فإذا بلغ أشده، زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ مَّا نَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه. فإن وفيتهم، فلکم الثواب الجزيل، وإن لم تفوا (١)، فعليكم الإثم العظيم.

(٣٥) ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَارْزُقُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وهذا أمر بالعدل وإفاء المكايل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن، أو مثن، أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبّت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يُعِدَّ للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

(٣٧-٣٩) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلْتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: كبراً وتبهاً وبطراً، متكبراً على الحق، ومتعاطماً على الخلق.

﴿إِنَّكَ﴾ في فلكك ذلك ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله ومحقرًا عند الخلق، مغبوضاً ممقوتاً، قد اكتسبت أشر الأخلاق، واكتسبت أردلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم من قوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٦

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٢٨٦﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ
 بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٢٨٧﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٢٨٨﴾
 قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
 ﴿٢٨٩﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٩٠﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ
 السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا
 تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٢٩١﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ
 الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بَا لَآخِرَةٍ حِجَابًا
 مَّسْتُورًا ﴿٢٩٢﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
 وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَغَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّهُ أَذْنَبَ إِثْمًا
 كَبِيرًا ﴿٢٩٣﴾ تَحْنُ أَعْيُنُهُمْ يَتَعَفَىٰ عَنْهُمْ أُمُّ أَيْمُنُهُمْ أَن تَرَىٰ
 إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعْبُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٢٩٤﴾ أَنْظِرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٢٩٥﴾
 وَقَالُوا إِذْ كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا نَا الْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٢٩٦﴾

والتدبير، وفقر من جهة الاضطرار، إلى أن يكون معبودهم
 ومحبوبهم، الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون،
 ولهذا قال:

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ مِّن
 حَيْوَانٍ نَّاطِقٍ وَغَيْرِ نَاطِقٍ، وَمِنَ الشَّجَرِ وَنَبَاتٍ، وَجَامِدٍ،
 وَحَيٍّ وَمَيِّتٍ﴾ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴿٢٩٠﴾ بلسان الحال، ولسان المقال
 ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي
 على غير لغتكم، بل يحيط بها عِلَامُ الْغُيُوبِ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه
 قولًا تكاد السموات والأرض تنفطر منه وتخر له الجبال،
 ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم، وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم
 إلى بابه، ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب
 الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته، لسقطت
 السموات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

(٤٥-٤٨) ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله
 لهم سمعًا، ولا ألقوا لها بالًا.

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو
 أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من
 الحجج العقلية والنقلية شيئًا كثيرًا، بحيث من أصغى إلى
 بعضها، لا تدع في قلبه شكًا ولا ريبًا.

ومن الأدلة على ذلك، هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا،
 فقال: ﴿قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ: ﴿تَوَلَّوْا
 كَان مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: على موجب زعمهم واقترائهم
 ﴿إِذَا لَبَّتُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لا اتخذوا سبيلًا إلى الله
 بعبادته والإجابة إليه، والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل
 العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه، إلها مع الله؟!
 هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟!.

فعلى هذا المعنى، تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ
 الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾

وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَسْتَدْرِكُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 فَيَقُولُ أَوَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ يَوْمَ هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صُلُوًّا لِّلْجَبَلِ ۚ قَالُوا
 سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبَيِّنُ لَنَا أَن تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا
 يَقُولُونَ إِذَا لَبَّتُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لطلبوا السبيل، وسعوا
 في مغالبة الله تعالى، فيما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر،
 هو الرب الإله. فأما وقد علموا أنهم يقولون أن آلهتهم التي
 يعبدون^(١) من دون الله مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر
 شيء، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله
 تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ
 كُلُّ إِلَهِ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ أي: تقدس وتزه وعلت أوصافه
 ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا
 كَبِيرًا﴾ فعلا قدره وعظم، وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن
 يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالًا مبينًا، وظلم
 ظلمًا كبيرًا.

لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى
 كبريائه السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن
 فيهن ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ
 بِيَمِينِهِ﴾.

وافترق إليه العالم العلوي والسفلي فقرأ ذاتيًا، لا ينفك عن
 أحد منهم في وقت من الأوقات.

هذا الفقر بجميع وجوهه، فقر من جهة الخلق والرزق

إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ۖ وَتَقُولُونَ إِنَّ لَيْسَتَهُ إِلَّا خَيْلًا ۖ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستبعادهم بقولهم: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا﴾ أي: أجسادًا بالية ﴿أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرُونَ عليه، جعلوا قدرة الله كذلك.

فسبحان من جعل خلقًا من خلقه، يزعمون أنهم أولو العقول والألباب، مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلها، وأوضحها براهين وأعلامها، ليرى عباده أنه ما ثمَّ إلا توفيقه وإعانتة، أو الهلاك والضلال.

﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادًا:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ﴾ أي: يعظم ﴿فِي صُورِكُمْ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تنالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزى الله، في أيِّ حالة تكونون، وعلى أيِّ وصف تتحولون. وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما فطركم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ﴾.

﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ﴾ أي: يهزونها إنكاراً وتعجباً مما قلت. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سفة منهم، وتعجيز ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار، على تقريره، والإقرار به، وإثباته، وإلا فكل ما هو آت، فإنه قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للبعث والنشور، وينفخ في الصور ﴿فَسَتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تنقادون لأمره، ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: هو المحمود تعالى، على ما يفعله، ويجزي به العباد، إذا جمعهم ليوم التناد.

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى آية أخرى فكتب: فلا يهتدون وعلى ذلك فسرهما، فأبقيت التفسير كما هو، وصوبت الآية.

بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّثُوا عَلَى آذَانِهِمْ نَفُورًا ۝ تَحْنُ أَعْمَرُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ۖ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ يُخَوِّتُونَ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝ انْظُرْ كَيْفَ صَرَّفُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين زدوه، وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال:

﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان، والخير والعلم الكثير.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ يسترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه، والانقياد لما يدعو إليه من الخير.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمما عن سماعه ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ﴾ داعياً لتوحيده، ناهياً عن الشرك به ﴿وَلَوْ أَعْلَى آذَانِهِمْ نَفُورًا﴾ من شدة بغضهم له، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾.

﴿تَحْنُ أَعْمَرُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة، يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه. ومن كان بهذه الحالة، لم يفده الاستماع شيئاً، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ يُخَوِّتُونَ﴾ أي: متناجين ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ في مناجاتهم ﴿إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بناها على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

قال تعالى: ﴿انْظُرْ﴾ متعجباً ﴿كَيْفَ صَرَّفُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ التي هي أصل الأمثال، وأبعدها عن الصواب ﴿فَضَلُّوا﴾ في ذلك، أو فصارت سبباً لضلالهم، لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد، أفسد منه.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾^(١) أي: لا يهتدون أيَّ اهتداء، فنصيبيهم الضلال المحض، والظلم الصَّرف.

(٥٢-٤٩). ﴿وَقَالُوا أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَقُولُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٧

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيدًا ٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْفُرُ
صُدُّوا عَنْكُمْ فَمَقُولُونَ مِّنْ بَعِيدٍ أَفَلِالَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيَنْغَضُونَ إِلَيْكُمْ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَرِيبًا ٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
وَتَقْتُلُونَ إِن لَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ٥٢﴾ وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّا الشَّيْطَانُ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّا الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَنِ
عَدُوًّا مُّبِينًا ٥٣﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَسَاءَ
يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ
بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
وَأَتَيْنَا دَاوُدَ رُبُّورًا ٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا
يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٥٧﴾
وَلِنْ مِنْ قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨﴾

﴿وَتَقْتُلُونَ إِن لَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من سرعة وقوعه، وأن الذي مر
عليكم من النعيم، كأنه ما كان. فهذا الذي يقول عنه
المنكرون: ﴿مَتَى هُوَ؟﴾ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال
لهم: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

(٥٣-٥٥) ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ
بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ○ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ
يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ○ وَرَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَأَتَيْنَا
دَاوُدَ رُبُّورًا وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن
الأخلاق والأعمال، والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا
والآخرة، فقال: ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهذا أمر
بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر
بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف، مع الخلق،
على اختلاف مراتبهم ومنازلهم. وأنه إذا دار الأمر بين أمرين
حسنيين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما، إن لم يمكن الجمع
بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن
من ملك لسانه، ملك جميع أمره.
وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يسعى بين العباد،
بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي
يدعوهم إليها، وأن يلبثوا فيما بينهم، لينتقم الشيطان الذي
ينزع بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه،
فإنه يدعوهم ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم، وسعى
في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم،
وأن يقيموا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان من
قيلها، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون
لرشدهم.

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما
هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون
شيئًا الخير في عكسه.

﴿إِنْ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ﴾ فيوفى من شاء
لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء، فيضل عنها، فيستحق
العذاب.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ تدبر أمرهم، وتقوم
بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط
مستقيم.

﴿وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من جميع أصناف
الخلايق، فيعطي كلًا منهم ما يستحقه، وتقتضيه حكمته،
ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية
والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشركين بوجهه على
بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم، من
الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال
الصالحة، وكثرة الاتباع، ونزول الكتب على بعضهم،
المشتملة على الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية كما أنزل
على داود زبورًا، وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم
كتبًا، فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ، ما أنزله الله عليه وما
فضله به من النبوة والكتاب.

(٥٧، ٥٦) ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ
الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ○ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ
الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ
كَانَ مَحْذُورًا﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه

من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإجابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

(٥٩، ٦٠) ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا ثُمَّ نَوَدُّ النَّافَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرَّبِّيَّ أَرْثِيكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يذكر تعالى رحمته، بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها. فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي النافقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات الكبار، لم يؤمنوا، فإنه ما منهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباها، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية غيرها مثلها، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها، التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علما وقدره، فليس لهم ملجأ يلجأون إليه، ولا ملاذ يلوذون به عنه. وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرَّبِّيَّ أَرْثِيكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ﴾ التي ذكرت ﴿فِي الْفُرْقَانِ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم.

والمعنى، إذا كان هذان الأمران، قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفا، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقا للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضا، من الخوارق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! ليس ذلك أولى أن

أنادًا يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزما لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين:

﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَانظُرُوا هَلْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَكُمْ الضَّرُّ، فإنهم لا ﴿يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ مِنْ مَرَضٍ، أو فقر، أو شدة ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكالية ﴿وَلَا﴾ يملكون أيضا تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال نافعة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي. ومن العجب، أن السفه عند الاعتقاد والممارسة، وتلقفه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه، هو الرأي السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

ثم أخبر أيضا، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه فقال:

﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنَ الْأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدر عليهم من الأعمال الصالحة، المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف، والرجاء، والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير. فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور. وعلامة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها. فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

(٥٨) ﴿وَإِنْ مِنْ قَرَبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفِتْنَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أبرمه، لا بد

يزداد بسببه شرهم؟ فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم.

ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، يذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ربياً في قلوب بعض المؤمنين، ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفراً عنه. بل ذكر الله ألفاظاً عامة، تناول جميع ما يكون.

﴿وَتُخَوِّفُهُمْ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغِنَا كَبِيرًا﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملي بالشر ومحبه، وبغض الخير وعدم الانقياد له.

(٦١-٦٥) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مُؤَفَّورًا ۖ وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَتَّعْتَهُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبِيرِكَ وَرَجَلِكُمْ وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتُهُمْ بِمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۚ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ يَنْبَغِي تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى شِدَّةِ عداوة الشَّيْطَانِ، وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم، استكبر عن السجود له، و﴿قَالَ﴾ متكبراً: ﴿أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي: من طين، وبزعمه أنه خير منه، لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿قَالَ﴾ مخاطباً الله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: لاستأصلهم بالإضلال، ولأغوينهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ عرف الخبيث، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

فقال الله له: ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ﴾ واختارك على ربه ووليه الحق. ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مُؤَفَّورًا﴾ أي: مدخراً لكم، موفراً جزاء على أعمالكم.

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَتَّعْتَهُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبِيرِكَ وَرَجَلِكْ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين، الداعي لهم إلى معصية الله، بأقواله وأفعاله.

﴿وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وذلك شامل لكل معصية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَأَيْنَا نَحْمَدُ النَّافَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٦١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا
جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْآنِ وَتُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٢﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٤﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مُؤَفَّورًا ﴿٦٥﴾ وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَتَّعْتَهُ
مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبِيرِكَ وَرَجَلِكُمْ وَشَارِكُكُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتُهُمْ بِمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٦﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبِّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ أَفْئَالَكُمْ
فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٨﴾

تعلقت بأموالهم وأولادهم، من منع الزكاة والكفارات، والحقوق الواجبة وعدم تأديب الأولاد، وتربيتهم على الخير، وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الردية.

بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع. وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان، كما ورد فيه الحديث.

﴿وَعِدَّتُهُمْ﴾ الوعود^(١) المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً مضمحلاً، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر، لأنهم يظنون أنهم على الحق. وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾.

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما

(١) في النسختين: الأوعاد.

سورة الأنعام

٢٨٩

سورة الأنعام

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا جَنَّكُمُ
إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٧٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخَسِّفَ
بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٧٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٨٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ
بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أَوَّىٰ كِتَبَهُ يَسْمِينَهُ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يُطْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٨١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ
أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٨٢﴾ وَإِن كَادُوا
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَتَّبِعَ عُلَيَّا غَيْرَهُ
وَإِذَا لَاتُخَذُوكَ خُلِيلًا ﴿٨٣﴾ وَلَوْ لَا أَن تُبْسِنَاكَ لَقَدْ كَدَّتْ
تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٨٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضَعْفَ
الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٨٥﴾

ولهذا ذكرهم الله ذلك بقوله: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ
الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: فهو على كل شيء قدير،
إن شاء أنزل عليكم عذابًا، من أسفل منكم بالخسف، أو من
فوقكم بالحابس، وهو العذاب الذي يحصبهم، فيصحبوا
هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر.
وإن ظننتم ذلك، فأنتم آمنون^(١) من ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر
﴿تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أي: ريحًا شديدة
جداً تقصف ما أتت عليه.

﴿فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا﴾ أي:
تبعة ومطالبة، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.
(٧٠) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وهذا من
كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم
بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال
الرسول، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء،

(١) مراد الشيخ - رحمه الله - الاستفهام. والله أعلم.

يعتصم به من فتنته، وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان
والتوكل، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ لَئِذَا لَقِيتُكَ لَكِ عِلْمٌ شَاطِنٌ﴾ أي:
تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل
شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائهم.
﴿وَكُنْ وَبَرِّكَ وَكَيْلًا﴾ لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

(٦٦-٦٩) ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَبَّأَ
مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأْتِ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وإذا مسَّكم الضرُّ في الْبَحْرِ ضَلَّ
مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا
﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا
تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ
نَبِيًّا﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد، بما سخر لهم من
الفلك، والسفن، والمراكب، وألهمهم كيفية صنعتها، وسخر
لها البحر الملتطم، يحملها على ظهره، ليتنفع العباد بها في
الركوب والحمل للامتنعة والتجارة. وهذا من رحمته بعباده،
فإنه لم يزل بهم رحيمًا رؤوفًا، يؤتيهم من كل ما تعلق به
إرادتهم ومنافعهم.

ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود، دون ما سواه،
أنهم إذا مسهم الضر في البحر، فخافوا من الهلاك، لتراكم
الأمواج، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله، في حال
الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في
وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء، عاجزون عن كشف
الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسموات الذي
تستغيث به في شدائد جميع المخلوقات، وأخلصوا له
الدعاء والتضرع في هذه الحال.

فلما كشف الله عنهم الضر، ونجاهم إلى البر، نسوا ما
كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به، من لا ينفع ولا يضر،
ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم
ومليكهم. وهذا من جهل الإنسان وكفره، فإن الإنسان كفور
للنعم، إلا من هدى الله، فمن عليه بالعقل السليم، واهتدى
إلى الصراط المستقيم. فإنه يعلم، أن الذي يكشف الشدائد،
وينجي من الأهوال، هو الذي يستحق أن يفرَّد وتُخلص له
سائر الأعمال في الشدة والرخاء، واليسر والعسر.

وأما من خذل، ووكّل إلى عقله الضعيف، فإنه لم يلحظ
وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة، وإنجاءه في تلك الحال.
فلما حصلت له النجاة، وزالت عنه المشقة، ظن بجعله، أنه
قد أعجز الله، ولم يخطر بقله شيء من العواقب الدنيوية،
فضلاً عن أمور الآخرة.

وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَمَحَلَّتْهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الركاب، من الإبل، والبغال، والحمير، والمراكب البرية ﴿و﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ في السفن والمراكب ﴿وَرَفَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المأكَل والمشارب، والملابس، والمناخ. فما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم، ودفع النقم، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

(٧٢، ٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِبَيِّنَاتِهِ فَأُولَئِكَ يُقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَذَمُّونَ فِيهَا﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين:

﴿فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِبَيِّنَاتِهِ﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلى صراط مستقيم، واهتدى بكتابه، فكثرت حسناته، وقلت سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ يُقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم.

﴿وَلَا يُذَمُّونَ فِيهَا﴾ مما عملوه من الحسنات. ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ الدنيا ﴿أَعْمَى﴾ عن الحق، فلم يقبله، ولم ينقله، بل اتبع الضلال ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها، وهل عملت به أم لا؟.

وأنهم لا يؤخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، ومخالفته لها.

وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بأيمانهم ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم.

(٧٧-٧٣) ﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيََّا إِلَيْكَ

لِنَفَرٍ عَلَىكَ غَرَضٌ وَإِذَا لَأَخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَا أَن نَّبَشُنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ وَإِن كَادُوا لَيَسْفِزُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيََّا إِلَيْكَ لِنَفَرٍ عَلَىكَ﴾ أي: قد كادوا لك أمراً لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجني بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك.

﴿وَإِذَا﴾ لو فعلت ما يهوون ﴿لَأَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: حيناً صفيّاً، أعز عليهم من أحبابهم، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، المحببة لل قريب والبعيد، والصديق والعدو.

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك، وينابذك العداوة، إلا للحق الذي جئت به، لا لذاتك، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ﴾ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ يَحْذَرُونَ.

﴿و﴾ مع هذا ﴿لَوْلَا أَن نَّبَشُنَاكَ﴾ على الحق، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم.

﴿وَإِذَا﴾ لو ركنك إليهم بما يهوون ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لأصيناك بعذاب مضاعف، في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفتك.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تترك إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة، وأبلغ منحة.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْفِزُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجعلوك منها.

ولو فعلوا ذلك، لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً، حتى تحل بهم العقوبة، كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته، عاجلها الله بالعقوبة.

ولما مكر به الذين كفروا، وأخرجوه، لم يلبثوا إلا قليلاً،

جمع وقتها جميعاً .

وفيه : فضيلة صلاة الفجر ، وفضيلة إطالة القراءة فيها ، وأن القراءة فيها ركن ، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها ، دل على فرضية ذلك .

وقوله : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي : صل به في سائر أوقاته ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي : لتكون صلاة الليل ، زيادة لك في علو القدر ، ورفع الدرجات بخلاف غيرك ، فإنها تكون كفارة لسيئاته .

ويحتمل أن يكون المعنى : أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين ، بخلاف صلاة الليل ، فإنها فرض عليك بالخصوص ، لكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك ، وليكثر ثوابك ، وتنال بذلك المقام المحمود ، وهو المقام الذي يحمد به الأولون والآخرون ، مقام الشفاعة العظمى ، حين يستشفع الخلائق بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى . وكلهم يعتذر ويتأخر عنها ، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ، ليرحبهم الله من هم الموقف وكربه . فيشفع عند ربه ، فيشفعه ، ويقيم مقاماً ، يغبطه به الأولون والآخرون . وتكون له المنة على جميع الخلق .

وقوله : ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي : اجعل مداخلني ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك ، وذلك لتضمنها الإخلاص ، وموافقة الأمر . ﴿وَأَجْعَلْ لِّي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أي : حجة ظاهرة ، وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتبه وما أدّره .

وهذا أعلى حالة ، ينزلها الله العبد ، أن تكون أحواله كلها خيراً ، ومقربة له إلى ربه ، وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليلاً ظاهراً ، وذلك متضمن للعلم النافع ، والعمل الصالح ، للعلم بالمسائل والدلائل .

وقوله : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ ، فأمره الله أن يقول ويعلم ، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء ، وزهق الباطل أي : اضمحل وتلاشى .

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي : هذا وصف الباطل ، ولكنه قد يكون له صولة وروجان ، إذا لم يقابله الحق ، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل ، فلا يبقى له حراك . ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيئاته .

(٨٢) وقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً مَّوْشِقًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء

حتى أوقع الله بهم بـ «بدر» وقتل صناديدهم ، وفض بيضتهم ، فله الحمد .

وفي هذه الآيات ، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت إياه ، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقاً لربه ، أن يشته على الإيمان ، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك ، لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق ، قال الله له : ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شبَّانًا قَلِيلًا﴾ فكيف بغيره ؟!

وفيها تذكير الله لرسوله ﷺ عليه ، وعصمته من الشر . فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإعانه عليهم - عند وجود أسباب الشر - بالعصمة منه ، والثبات على الإيمان .

وفيها : أنه بحسب علو مرتبة العبد ، وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمه ، ويتضاعف جرمه ، إذا فعل ما يلام عليه ، لأن الله ذكّر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله : ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعُفَ الْحَيَوةُ وَضَعُفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ .

وفيها أن الله إذا أراد إهلاك أمة ، تضاعف جرمها ، وعظم وكبر ، فيحق عليها القول من الله ، فيوقع بها العقاب ، كما هي سنته في الأمم ، إذا أخرجوا رسولهم .

(٧٨-٨١) ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكَ السُّجُودِ إِلَى عَسَىٰ أَلَّيْلٍ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ○ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ○ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِّي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ○ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ○ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلاة تامة ، ظاهراً وباطناً في أوقاتها ﴿لِذُلُوكِ السُّجُودِ﴾ أي : ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال ، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر .

﴿إِلَى عَسَىٰ أَلَّيْلٍ﴾ أي : ظلمته ، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي : صلاة الفجر ، وسميت قرآناً ، لمشروعية إطالة القراءة فيها أطول من غيرها ، ولفضل القراءة حيث يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار .

ففي هذه الآية ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات ، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض ، لتخصيصها بالآمر .

وفيها أن الوقت شرط لصحة الصلاة ، وأنه سبب لجوبها ، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات . وأن الظهر والعصر يجمعان ، والمغرب والعشاء كذلك ، للعدر ، لأن الله

والرحمة. وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العالمين به. وأما الظالمون بعدم التصديق به، أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة.

فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة والانحراف السيئ، والقصور السيئة^(١). فإنه مشتمل على العلم اليقيني الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، وشفاء الأبدان من الآمها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل.

(٨٣) ﴿وَإِذْ آتَيْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَا بَاجَانِيَةً وَإِذْ مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ هذه طبيعة الإنسان، من حيث هو إلا من هداه الله. فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم، ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره، ولا يذكره ﴿وَإِذْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالمرض ونحوه ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً. وأما من هداه الله، فإنه - عند النعم - يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخذولين لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ فيعلم من يصلح للهداية، فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

(٨٥) ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التي لا يقصد بها إلا التعتن والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفية كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد.

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت. فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم

٢٩٠ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْفِزُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧) أَقْبَرُ الصَّلَاةُ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنُ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنْ آيَاتِ فَتْحِجَدِّ بِهِ نَافِلَةٌ لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) وَإِذْ أَتَيْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَا بَاجَانِيَةً وَإِذْ مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٣) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٨٤) ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُكَ بِهِ عَلِيمًا وَكِيلًا﴾ (٨٦)

بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

(٨٦، ٨٧) ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلِيمًا وَكِيلًا﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله، رحمة منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبير، لا يقادر قدره. فالذي تفضل به عليك، قادر على أن يذهب به، ثم لا تجد راداً يردّه، ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه. فَلْتَعْتَظْ بِهِ، وَتَقَرَّ بِهِ عَيْنِكَ، ولا يحزنك تكذيب المكذبين، واستهزاء الضالين، فإنهم عرضت عليهم أجل النعم، فردوها لهوانهم على الله، وخذلانه لهم.

(٨٨) ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْبَنِي إِسْرَءِيلَ

٢٩١

سُورَةُ

إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٌ ظَاهِرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارُ خَلَالَهَا فَتُجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْكَ كِسْفًا أَو تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَّمشُونَ مُتَمَسِّكِينَ لَنُزِّلَنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ خَيْرًا بِصِيرًا ﴿٩٦﴾

الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٌ ظَاهِرًا ﴿٨٧﴾ وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه. حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدرُوا عليه.

ووقع كما أخبر الله، فإن دواعي أعدائه المكذبين به، متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة. فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك، لفعلوه.

فعلم بذلك، أنهم أذعنوا غاية الإذعان، طوعًا وكرهاً، وعجزوا عن معارضته.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة، ولا إرادة ولا مشيئة، ولا كلام ولا كمال، إلا من ربه، أن يعارض كلام رب الأرض والسموات، المطلع على سائر الخفيات الذي له الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مدادًا، والأشجار كلها أقلام، لنفد المداد، وفنيت الأقلام، ولم تنفد كلمات الله.

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلاً لله في أوصافه، فكلامه من أوصافه، التي لا يماثله فيها أحد. فليس كمثله شيء، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله تبارك وتعالى.

فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمداً ﷺ افتراه على الله واختلقه من نفسه.

(٨٩-٩٦) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارُ خَلَالَهَا فَتُجِيرًا﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْكَ كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَّمشُونَ مُتَمَسِّكِينَ لَنُزِّلَنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ خَيْرًا بِصِيرًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾

أي: نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثنيّا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد، لأجل أن يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم الذين سبق لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه. وأما أكثر الناس فأبوا إلا كفوراً لهذه النعمة التي هي أكبر من جميع النعم، وجعلوا يتعتنون عليه [بإقتراح] (١)

آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة. فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ أي: أنهاراً جارية.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٍ﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء.

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْكَ كِسْفًا﴾ أي: قطعاً من العذاب ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي: جميعاً، أو مقابلة ومعاينة، يشهدون لك بما جئت به.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ﴾ رقيّاً حبساً ﴿و﴾ مع هذا ف ﴿لَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾.

ولما كانت هذه تعنتات، وتعجيزات، وكلام أسفّه الناس وأظلمهم، متضمنة لرد الحق، وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات - أمره الله أن ينزّه فقال:

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَهُمْ أُولِيَاءَ
مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبِكَمَا
وَصَّمًا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾
ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا
وَرُفَّتْ أَعْيُنُنَا وَمَآ لَنَا لِمَعْبُوتٍ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾
قُلْ لَّوِ انْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَمْ تَسْكُنْمْ خَشْيَةً
الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ
آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَتَلِ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿٢١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَىكَ
هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
بِفِرْعَوْنٍ مُّتَّبِعًا ﴿٢٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرْهُمْ مِنْ الْأَرْضِ
فَاغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿٢٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ
أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿٢٤﴾

خلق الناس. ﴿قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بلى، إنه على ذلك قدير.

﴿وَلَكِنَّهُ قَدْ جَعَلَ لَذَلِكَ﴾ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿وَلَا شَكَّ، وَإِلَّا فَلَوْ شَاءَ لَجَاءَهُمْ بِهِ بَغْتَةً، وَمَعَ إِقَامَتِهِ الْحُجَجِ وَالْأَدْلَةَ عَلَى الْبُعْثِ ﴿فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ظَلَمًا مِنْهُمْ وَاقْتِرَاءً.

﴿قُلْ لَّوِ انْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ التي لا تنفذ ولا تنبذ ﴿إِذَا لَمْ تَسْكُنْمْ خَشْيَةً الْإِنْفَاقِ﴾ أي: خشية أن ينفذ ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

(١٠١-١٠٤) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَتَلِ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَىكَ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّتَّبِعًا ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرْهُمْ مِنْ الْأَرْضِ فَاغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿أي: لست أيها الرسول المؤيد بالآيات، أول رسول كذبه الناس، فلقد أرسلنا قبلك موسى ابن عمران الكليم، إلى فرعون وقومه، وآتيناه ﴿تِسْعَ آيَاتٍ

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عما تقولون علواً كبيراً، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ليس بيدي شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا. وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرًا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

فلو ﴿كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمَشُّونَ مَطْمَتِينَ﴾ يثبتون على رؤية الملائكة، والتلقي عنهم ﴿لَنَرَنَّا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ليمكنهم التلقي عنه.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِيَاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناواه. فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين. فإنه خبير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

(٩٧-١٠٠) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبِكَمَا وَصَّمًا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتْ أَعْيُنُنَا وَمَآ لَنَا لِمَعْبُوتٍ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ قُلْ لَّوِ انْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَمْ تَسْكُنْمْ خَشْيَةً الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا ﴿يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال. فمن يهده، فييسره لليسرى ويجنبه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة. ومن يضلله، فيخذله، ويكله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله. وليس له ولي ينصره من عذاب الله، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيًا وإهانة، عميًا وبكمًا، لا يبصرون، ولا ينطقون.

﴿مَأْوَهُمْ﴾ أي: مقرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمعت كل هم، وغم، وعذاب.

﴿كَلَّمَآ خَبَتْ﴾ أي: تهيأت للانطفاء ﴿زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: سعرتها بهم لا يفتّر عنهم العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم وأنكروا تمام قدرته.

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتْ أَعْيُنُنَا وَمَآ لَنَا لِمَعْبُوتٍ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهي أكبر من

وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
 وَفَرَأَيْنَا فَتَنَةَ الْفِرْعَوْنَ ۖ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلَتْهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾
 قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالَّذِينَ سَجَدُوا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَجِرُونَ لِالَّذِينَ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾
 فَيَمَّا يَتْلَوْنَ آيَاتِنَا تُبْدِي مَنْ لَدُنْهُ وَيَبْشُرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِينٌ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَنُذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

غاية التأثر، ويخضعون له.
 ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبَّنَا﴾ عما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لا تخلف فيه ولا شك.
 ﴿وَيَجِرُونَ لِالَّذِينَ يَبْكُونَ﴾ أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ وهؤلاء كالذين آمن بالله عليهم من مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره، ممن آمن^(١) في وقت النبي ﷺ، وبعد ذلك.

(١١٠، ١١١) ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ○ وقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا يقول تعالى لعباده: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أي: أيهما شئتم. ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: ليس له اسم غير حسن، حتى ينهى عن دعائه به، بل أي اسم دعوتومه به، حصل به المقصود، والذي ينبغي:

(١) في ب: أسلم.

يَنْتَبِذُ كل واحدة منها تكفي لمن قضده اتباع الحق: كالحية، والعصا، والظوفان والجراد، والقمل والضفادع، والدم، والرجز، وقلق البحر. فإن شككت في شيء من ذلك ﴿فَسَتَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ مع هذه الآيات ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

ف ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتُ﴾ يا فرعون ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويجًا على قومك، واستخفافًا لهم ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مَثْبُورًا﴾ أي: ممقوتًا ملقى في العذاب، لك الويل والذم واللعنة.

﴿فَارَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفْزِمَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: يجلبهم ويخرجهم منها. ﴿فَاعْرِفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم.

ولهذا قال: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعًا، ليجازي كل عامل بعمله.

(١٠٥) ﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم، لأمر العباد، ونهيهم، وثوابهم، وعقابهم ﴿وَالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بالصدق والعدل، والحفظ من كل شيطان رجيم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك، بيان ما بشر به وأنذر.

(١٠٦-١٠٩) ﴿وَفَرَأَيْنَا فَتَنَةَ الْفِرْعَوْنَ ۖ لِقِرَاءِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلَتْهُ نَزِيلًا﴾ ○ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالَّذِينَ سَجَدُوا ○ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ○ وَيَجِرُونَ لِالَّذِينَ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ○ ﴿١﴾ أي: وأنزلنا هذا القرآن مفرقًا فارقًا بين الهدى والضلال، والحق والباطل ﴿لِقِرَاءِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: على مهل، ليتدبروه، ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه.

﴿وَنَزَلَتْهُ نَزِيلًا﴾ أي: شيئًا فشيئًا، مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَحَسَنَ تَقْوِيمًا﴾. فإذا تبين أنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه ف: ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به، وأعرض عنه: ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم. فإن الله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالَّذِينَ سَجَدُوا﴾ أي: يتأثرون به

وَمُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَنْهَىٰ عَنْ آفْوِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ فَلَمَّا بَلَغَ نَقْصَ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ ۚ إِنَّ لَكَ يَوْمَئِذٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ۚ الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية وأجل نعمه على الإطلاق: إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله، محمد ﷺ، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمده على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم. ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنه قيم^(١) مستقيم، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلّ الإخبارات وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤/٢/٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة آلاف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعث الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ محب الدين الخطيب لطباعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، وأتبعه بخاتمة فيها أصول وكمالات من أصول وكمالات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

(بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه. أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلاً من حكيم حميد، أنزله هدى ورحمة للعباد وتبيناً لكل شيء، وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وآخرهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه واطفائه منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير، ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور وينديها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه والنحو لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلّت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحبيت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاقتصاد على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا ولإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه، إنه جواد كريم رءوف رحيم. وأتبعته بكمالات وأصول من كمالات التفسير لاستدراك ما لعله يفوت القارئ في غير هذا الجزء، فإن الأصول والكمالات تبني عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسناً ونعم الوكيل. (٢) في ب: مقيم.

أن يدعى في كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم. ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: قراءتك ﴿وَلَا تَخَافَتْ يَهَا﴾ فإن في كل من الأمرين محذوراً. أما الجهر، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه، سبّوه، وسبّوا من جاء به.

وأما المخافة، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين الجهر والإخفات ﴿سَبِيلًا﴾ أي: توسط فيما بينهما.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي﴾ له الكمال، والثناء، والحمد، والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص. ﴿الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ﴾ بل الملك كلّ الله الواحد القهار. فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ أي: لا يتولى أحداً من خلقه، ليتعزّز به ويعاونه. فإنه الغني الحميد الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحساناً منه إليهم ورحمة بهم ﴿اللَّهُ وَبِالَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

﴿وَكَبِيرَةٌ تَبْدِيلًا﴾ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده، لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء، والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامع عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليماً وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤.

المجلد الخامس من تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان لجامعه الفقير إلى الله عبدالرحمن بن ناصر السعدي^(١).

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ عِجَابًا ۚ فِيمَا كُنْتُمْ شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۚ مَّنَكُنَّ فِيهِ أَبَدًا ۚ

﴿ثُمَّ نَزَلْنَاهُ مِائَةً أَلْفًا مِّنْ أَلْفٍ عَلَىٰ نَارٍ كَذِبًا﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إِنْ يَوَلُّوْا كَذِبًا﴾ أي: كذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدرج والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولاً: أنه ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِيَايَاهُمْ﴾ والقول على الله بلا علم، لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانياً، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ثم ذكر ثالثاً مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

ولما كان النبي ﷺ، حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ، يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَمَّا بَلَغَ نِعْمَكَ الْآلَاءُ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ وهنا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ نَبْغُ نَفْسِكَ﴾ أي: مهلكها، غمّاً وأسفاً عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيراً لهداهم. ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم، فلم يهتدوا، فإشغالك نفسك غمّاً وأسفاً عليهم، ليس فيه فائدة لك. وفي هذه الآية ونحوها عبرة.

فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ، والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فيها وزعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مُضْعَفٌ للنفس، هادم للقوى، ليس له فيه فائدة، بل يمضي على فعله، الذي كُلِّفَ به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته.

وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وموسى عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَجْثَى﴾ الآية، فمن عداهم، من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾.

(٨، ٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِيَسْلُوْهُرَ أَهْلُهَا أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُثًا﴾ يخبر تعالى، أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مأكلاً للذئبة، ومشارب، ومساكن^(٢) طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر

المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تركي النفوس، وتطهرها وتميها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين، وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به.

وقوله: ﴿يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا، وعقاب الآخرة، وهذا أيضاً من نعمه أن خَوَّفَ عباده، وأنذرهم، ما يضرهم ويهلكهم، كما قال تعالى - لما ذكر في هذا القرآن وصف النار - قال: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَجْعَلُونَ فِتْنَةً﴾ فمن رحمته بعباده، أن يقض العقوبات الغليظة على من خالف أمره، وبينها لهم، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب، ليبشر المؤمنين به، ويرسله، وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة، من واجب، ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة.

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه، ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك، لم يكن حسنة تاماً.

ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿تَكُونُ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به. وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح، موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ من اليهود والنصارى، والمشركين الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه، بالاتخاذ للولد^(١)، الذي يقتضي نقصه، ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية، والإلهية، والكذب عليه؟!!

(١) كذا في ب، وفي أ: الولد. (٢) في ب: ملابس.

سُورَةُ الْكَهْفِ

٢٩٤

الْكَهْفِ

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِخُصْمِكَ الْأَنْثَرِ أَنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَئْ لَنَا مِنْ أَمْرٍ نَارِشِدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وزهد وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنه واختبارًا.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جرزًا قد ذهب لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلّاها الله لنا كأنها رأيي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا. فاعتر بزخرف الدنيا وزينتها من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفة، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهولاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه، من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهاز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشقة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل البطال لدنياء، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!

(٩-١٢) ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ○ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَئْ لَنَا مِنْ أَمْرٍ نَارِشِدًا ○ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ○ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ○ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، والنهي. أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف، وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة. وإنما المراد، أن جنسها كثير جدًا، فالوقوف معها

وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم إلى الكهف الذي هو الغار في الجبل؛ والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم، لملازمتهم له دهرًا طويلاً.

ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ أي: الشباب، ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنه قومهم لهم.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: تثبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقنا للخير ﴿وَهِيَئْ لَنَا مِنْ أَمْرٍ نَارِشِدًا﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه؛ وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم؛ وعدم اتكالهم على أنفسهم، وعلى الخلق.

فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي: أنماهم

عَلَيْهِمْ يَسْلُطُكَ يَبْنَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفَرَّى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٣﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفوتوا^(١) إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ يَسْلُطُكَ يَبْنَ﴾ أي: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله، وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفَرَّى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

(١٦) ﴿وَإِذْ أَفَرَّاتُوهُمْ وَمَا يَبْدُونَكَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ أي: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا بقائهم^(٢) بين أظهرهم، وهم على غير دينهم.

﴿فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾. وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهياً لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الشاء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

(١٧، ١٨) ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ. ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أُنُفْكَافًا﴾ أي: وتَحْسَبُهُمْ أُنُفْكَافًا وَهُمْ رُفُودٌ وَقُلُوبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ كَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: حفظهم الله من الشمس، فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس، تميل عنه يميناً، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أديانهم بها.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والسيب، ويزول عنهم الوحمة، والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول المكث، وذلك من آيات

﴿سَيِّدِكَ عَدَدًا﴾ وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون آية بيته.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيَّ الْجَزَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّسَعَّ لَوْأُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى، وحكمته، ورحمته. فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك، من قصتهم.

(١٣، ١٤) ﴿ثُمَّ نَفْضَ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿آمَنُوا﴾ بالله وحده لا شريك له، من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى﴾.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم ويره، أن وقفهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمانينة.

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الذي خلقنا ورزقنا، وديرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية، على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا:

﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا﴾ أي: إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شَطَطًا﴾ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق، وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

(١٥) ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ

(١) في ب: والتقوى، وهو تصحيف. (٢) في النسخين: ولا بقاؤهم.

سورة الكهف

٢٩٥

سورة الكهف

وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأْنَا إِلَى الْكَهْفِ
يُنشِرُ لَكُمْ رُزْقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا
﴿١٩﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرُورَعْنَ كَهْفَهُمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ
يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿٢٠﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاقًا
وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ
بَنَسِيطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿٢١﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُمْ بِرُزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرُزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِنْهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ فَرِّجُوهُمْ
أَوْ يَعْصِدُوكُمْ فِي مَلِئَتِهِمْ وَلَنْ تَمْلِكُوا إِذَا أَبْكَدَا ﴿٢٣﴾

طول مدتهم، فهذا ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾. فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً. ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم لیتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه. فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَدَّ اللَّهُ حَقَّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾. فلو لا أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم، أي: بالدرهم التي كانت معهم، ليشترى لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذّه، وأن يتطلف في ذهابه وشرائه، وإيابه، وأن يخفي في

الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم، حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين.

﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راداً لحكمه. ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيَاقًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم [كانهم] آيقات، والحال أنهم نيام.

قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم، يحسبهم آيقاتاً، وهم رقود.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها، أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم، يميناً وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير قلب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وَكَلْبُهُمْ بَنَسِيطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فئانه، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حماهم بالرب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلا قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً. والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم، يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

(٢٠، ١٩) ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِرُزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرُزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنْهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ فَرِّجُوهُمْ أَوْ يَعْصِدُوكُمْ فِي مَلِئَتِهِمْ وَلَنْ تَمْلِكُوا إِذَا أَبْكَدَا ۝ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكانهم وقع عندهم اشتباه في

على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية.

وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم و﴿قَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم.

وقال من غلب على أمرهم - وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَتَنَخِذَنَّ عَنْهُمْ مَسْجِدًا﴾ أي: نعبد الله تعالى فيه، ونذكر به أحوالهم، وما جرى لهم. وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدًا بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن، سلمه الله منها. وأن من حرص على العاقبة عافاه الله، ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره. ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته، العزّ العظيم، من حيث لا يحتسب ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْآبَرَارِ﴾.

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ وَلَا تَسْقُفْ فِيهِمْ مِّنْهُمُ أَحَدًا﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم. ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذان القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانها.

ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا - والله أعلم - الصواب، لأن الله أبطل الأولين، ولم يطله، فدل على صحته. وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية، ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى:

﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلّموا إصابتهم ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ أي: تجادل وتحتاج ﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ أي: منيّا على العلم واليقين، ويكون أيضًا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها. إما أن يكون الخصم معاندا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة

ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرون بهم أحدًا. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحققتهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يقتلوه عن دينهم، ويردوهم في ملتهم. وفي هذه الحال، لا يفلحون أبدًا، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان، على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيَّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾. وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك. ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر، من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه. وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين، والمتأخرين لقولهم: ﴿وَلَنْ تَقْلِحُوا إِذَا أَبَدَا﴾.

(٢١) ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَسْتَرْعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا أَلَمْ يَعْلَم بِهِنَّ قَالِ الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَتَنَخِذَنَّ عَنْهُمْ مَسْجِدًا﴾ يخبر الله تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرًا، فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو: أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بُد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن نافذ لذلك، فجعل قصتهم، زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة

فتصير الأفكار والهواجس فيها وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناس، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله ويُقْبِل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبديّة، والندامة السرمديّة ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: صار تبعاً لهواه، حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرْطًا﴾ أي: ضائعة معطلة. فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به. ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وقاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه. فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماماً، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، ويتمامه تتم باقي الأقسام.

وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرقي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

(٢٩-٣١) ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ أَنَّ شَاءَ فَلْيُؤْمِنُوا وَمِنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرُوا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يَنعم الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَقَقًا﴾ أي: قل للناس يا محمد: هذا الحق من ربكم. أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة.

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنُوا وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرُوا﴾ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة، بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر. فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة،

لليسرى، ويجنبهم العسرى، ولهذا قال: ﴿مَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ ۖ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلمهم إلى أحد من الخلق.

﴿وَلَا يَشْكُرُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاء وقدرًا، وخلقًا وتديرًا والحاكم فيهم بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

ولما أخبر أنه تعالى له غيب السموات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا من الطريق التي يخبر بها عباده - وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب - أمر تعالى بالإقبال عليه فقال:

(٢٧) ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ التلاوة هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامثال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿وَوَسَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فلتمامها استحالة عليها التغير والتبديل. فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك، أو شيء منه. وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه، الترغيب على الإقبال عليه.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: لن تجد من دون ربك، ملجأً تلجأ إليه، ولا معاذاً تعوذ به، فإذا تعين أنه وحده، الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المعبود المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

(٢٨) ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ - وغيره أسوته - في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله. فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدنيئة، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا،

وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وليس في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها المحيط بها. فليس لهم منفذ، ولا طريق، ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوا﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفىء ما نزل بهم من العطش الشديد ﴿يَعَاثُوا يَمَاءً كَأَمْلِهِ﴾ أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته ﴿يَشْوَى الْجُودُ﴾ أي: فكيف بالأعماء والبطون، كما قال تعالى: ﴿يُضْهِرُّ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ وَهُمْ مَقْلَعُونَ مِنْ حَيْدِرٍ.

﴿يُنَسِّسُ الشَّرَابُ﴾ الذي يراد ليطفىء العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفق به. فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق الذي لا يُقْتَرَنُ عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب، كما نسوه.

ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات: من الواجبات والمستحبات ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعا في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيههم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَاسْتَرَقَ مِنْ ثَمَرِكَيْنِ﴾ أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليا التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة. وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه. متكئين فيها على الأرائك وهي السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك. وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم

سورة الكهف

٢٩٧

سورة الكهف

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يَرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا ﴿٣٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَاسْتَرَقَ مِنْ ثَمَرِكَيْنِ مُتَكئينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٤١﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِحَدِّمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٤٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٤٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٤٤﴾

بما يشتهون، وتماثل ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية. فهذه الدار الجليلية ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها: مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة. وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه، ونعيمه، وقصوره، وبساتينه ألقي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأمانى. ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام، مترايد في أوصافه وحسنه. فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده، من الإحسان، بشرا ما عندنا من التقصير والعصيان.

ودلت الآية الكريمة، وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة، لأنه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذلك التحرير ونحوه.

(٣٢-٣٤) ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِحَدِّمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٤٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ يَقُولُ تَعَالَى

بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ على ضرب المثل ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين. إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظاً من العقل، فأى تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أُعْطِيَ في الدنيا أُعْطِيَ في الآخرة. بل الغالب، أن الله تعالى يَرُوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فإثبات: أن وصفه الظلم في حال دخوله، الذي جرى منه من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

(٣٧-٣٩) ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْطٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۚ لَيْكَأَنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: قال له صاحبه المؤمن - ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْطٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يَسِّرُ لك الأسباب، وهياً لك ما هياً، من نعم الدنيا. فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً وتجدد^(١) نعمته، وتزعم أنه لا يعنك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك، هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطفغيانه، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لَيْكَأَنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم^(٢) طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

ثم أخبره أن نعمة الله عليه، بالإيمان والإسلام ولو مع قلة

لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب، ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما فيه، فائدة أو نتيجة. فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك، من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين أي: بستانين حسنين، من أعناب. ﴿وَحَفَافًا يُتَخَلَّى﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار: العنب، والنخل. فالعنب في وسطها، والنخل قد حف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل بها الثمار، وتضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً. فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء كيفيهما؟.

فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها أي: ثمرها وزرعها ضعفين أي: متضاعفاً ﴿وَوُكِّلَ لَهُمَا مَنَاسِكُ﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء. ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وَكُنَّ لَهُمَا﴾ أي: لذلك الرجل ﴿نُورٌ﴾ أي: عظيم كما يفيد التذكير أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحت أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

(٣٤-٣٦) ﴿فَقَالَ لَصَنِيعِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۚ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۚ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماكرات المعتادة، مفتخرًا عليه.

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره، من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأى افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمانى التي لا حقائق تحتها.

ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته. ف ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي: تقطع وتضمحل ﴿هَذِهِ أَبَدًا﴾ فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي

(١) في ب: وتجدد. (٢) في ب: والتزام.

ماله وولده - أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها مُعْرَضٌ للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال:

(٣٩-٤٤) ﴿إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِصَ صَعِيدًا زَلَقًا ۖ أَوْ يُصْبِحَ مَاوُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَّهُم طَلَبًا ۖ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُمْ فِتْنَةٌ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۚ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۖ﴾.

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت - وإن فخرت علي بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً - فإن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ۖ﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ۖ﴾ أي: عذاباً، بمطر عظيم أو غيره.

﴿فَنُصِصَ ۖ﴾ بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا ۖ﴾ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاوُهَا ۖ﴾ الذي مادتها منه ﴿غَوْرًا ۖ﴾ أي: غائراً في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَّهُم طَلَبًا ۖ﴾ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه، بالمعاول ولا بغيرها. وإنما دعا على جنته المؤمن، غضباً لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها، لعله ينب، ويراجع رشده، ويصبر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ ۖ﴾ أي: أصابه عذاب، أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَ فِيهَا ۖ﴾ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه، وشره، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَّهُمْ فِتْنَةٌ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۖ﴾ أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفخر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فلم يدفعوا عنه من هذا العذاب شيئاً، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر - أي: يكون له أنصار - على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره: لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدرُوا!!!

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع

سورة الكهف

٢٩٨

سورة الكهف

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَا تُولَّا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِصَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاوُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِتْنَةٌ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ أَلَدُنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۖ﴾ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا. والكرامة لمن آمن، وعمل صالحاً، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح، أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه، فتوابه الدنيوي والأخروي خير ^(١) ثواب يرجي ويؤمل.

ففي هذه القصة العظيمة، اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فآلهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن

(١) في الجملة إشكال دفع إلى جعلها في بعض الطبقات (شر ثواب) وهي في النسختين (خير ثواب) وظاهر أن المقصود بذلك من كان مؤمناً تقياً، فهو الذي ثوابه خير ثواب.

سعى أعماله؛ هنالك بعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات بالتوبة والأعمال الصالحات.

فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قَدَّرِي أَنْكَ قَدْ مِتَّ، ولا بد أن تموتي، فأَي الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تستتبه الأُنفس وتلد الأعين؟، فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربه من خسرانه.

ولهذا أخبر تعالى، أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات. وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة: من حقوق الله، وحقوق عباده من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمره، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات والمماليك والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخيراً أملاً، فتوابعها يقي، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجراها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجدُ في تحصيلها المجتهدون.

وتأمل، كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زيتها، يتمتع به قليلاً، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون.

ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات.

(٤٧-٤٩) ﴿وَيَوْمَ نُسِِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَتَرْنَاهُمْ فَلَمْ تَوَدَّ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَوَضَعْنَا عَلَى رِجْلِكَ صِفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۝ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُجُوكَ أَحَدًا﴾

يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأحوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسِِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كتيلاً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلشى، وتكون هباء منبثاً، وتبرز الأرض، فتصير

مألها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً، فإنه يحرمها طويلاً.

وأن العبد، ينبغي له - إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده - أن يضيف النعمة إلى موليتها ومسديها، وأن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله» ليكون شاكرًا لله متسببًا لبقاء نعمته عليه، لقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله: ﴿إِنْ كَرِهْنَا أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾.

وفيها: أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عَنَّا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

وفيه الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصاً إن فُضِّلَ نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم.

وفيها: أن ولاية الله وعدمها، إنما تتضح نتيجتها، إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجراًهم ف﴿هَٰذَا لِلَّهِ وَلِيَّةٌ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: عاقبة ومآل.

(٤٥، ٤٦) ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَنَاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلاً، ولمن قام بوراثته بعده تبعاً: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا، ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإثارة، وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر، ينزل على الأرض فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فيبنا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيماً تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء تراباً، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب.

كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهما ودينارها، واقطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله. فذهب عنه سروره، وزالت لذته وجوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو

قاعاً صفصفاً، لا عوج فيه ولا أمّتا. ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحداً.

بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقصور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعد ما تمزقوا، خلقاً جديداً، فيعرضون عليه صفّاً، ليستعرضهم، وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر، التي كسبوها. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

وقال هنا، مخاطباً للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عياناً: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَجْعَل لَّكَ مَوْعِدًا﴾ أي: أنكرتم الجزاء على الأعمال، ووعد الله ووعدته فيها قد رأيتموه وذقتموه، فحينئذ تحضر كُتُبُ الأعمال التي كتبتها الملائكة الكرام^(١)، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تدوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رآوها مسطرة عليهم أعمالهم، مُحْصَى عليهم أفعالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ لا يقدرون على إنكاره ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فحينئذ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب ذلك بما قدّمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

(٥٠) ﴿وَلِإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكراماً وتعظيماً، وامتنالاً لأمر الله، فامتلأوا ذلك ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ فبين بهذا، عداوته لله ولإيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان - الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر - عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

سورة الكهف

٢٩٩

سورة الكهف

أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مَلًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ نُسِرَ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٥٢﴾ وَغَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٥٣﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فِي مَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٥﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخِذِينَ عِضْدًا ﴿٥٦﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٧﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٨﴾

وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدوًّا، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي وليًّا، وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

(٥١، ٥٢) ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخِذِينَ عِضْدًا﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المضلين] ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء

يَهْلِكُ ﴿٥٣﴾ ولهذا قال:

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك، غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال:

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال، والحق والباطل قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيتهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا، عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعينة، أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

(٥٦) ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِكُلِّ فِرْقَةٍ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أي: لم نرسل الرسل عبثًا، ولا ليتخذهم الناس أربابًا، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويشرونهم على امتثال ذلك، بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل، مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق على الباطل ﴿بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ومن حكمة الله ورحمته، أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلة، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

(٥٧-٥٩) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۚ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجْعَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۚ وَتِلْكَ الْأَفْرُزَاتُ اهْلَكَكُمْ لَمَّا ظَنُّوْا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا ولا

من الشياطين، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقًا، ولم يعاونوا الله تعالى؟! ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشؤون، أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطًا من التدبير، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصهم ولا يدنهم.

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: ﴿نَادُوا شُرَكَاءِي﴾ بزعمكم أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا، فيالحقيقة، ليس لله شريك في الأرض ولا في السماء، أي: نادوهم، لينفكوكم ويخلصوكم من الشدائد ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿مَوْبِقًا﴾ أي: مهلكًا، يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كافرين﴾.

(٥٣) ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفتدة والقلوب.

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنه صرّف فيه من كل مَثَلٍ، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، فيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادًا وطمأنينة ونورًا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له، في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٠

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا
 إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ۚ لَا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ
 الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٧﴾ وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ
 إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ
 لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ وَمَا أُذِرُوا هَزْلًا ﴿٥٨﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَا
 أَنْجَعْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
 وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٩﴾ وَرَبُّكَ
 الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ
 الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ﴿٦٠﴾
 وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ أَهْلَكَتْهُمْ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُمْ وَجَعَلْنَا لَمَهِلِكِهِمْ
 مَوْعِدًا ﴿٦١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتْنَهُ لَا أَتَّبِعُكَ حَتَّى
 أَتَّبِعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
 مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٣﴾

أي: وقتًا مقدراً، لا يتقدمون عنه، ولا يتأخرون.

(٦٠-٨٢) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتْنَهُ لَا أَتَّبِعُكَ حَتَّى أَتَّبِعَ
 مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ۚ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا
 حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۚ فَلَمَّا جَاوَرَا قَالَ لِقَتْنُهُ إِنَّا نَسِينَا
 لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۚ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الْغَصْوَةِ فَإِنِّي
 نَسِيتُ الْغَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
 الْبَحْرِ عَجَبًا ۚ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۚ
 فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا
 عِلْمًا ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلِ اتَّبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّا عَلَّمْتَ رَشَدًا ۚ قَالَ
 إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۚ وَكَفَّ نَصْرَ كُلِّ مَانٍ يُحِطُ بِهِ خَيْرًا ۚ قَالَ
 سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۚ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي
 فَلَا تَسْتَنِي عَنِ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا
 فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۚ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
 صَبْرًا﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته
 في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتاه، أي: خادمه الذي

(١) في ب: فإنه أشد، والسياق يدل على ما أثبت. (٢) في الأصل: واخذ.

أكبر جرماً من عبدٍ ذُكرَ بآيات الله ويُنَّ له الحق من الباطل،
 والهدى من الضلال، وخُوفٌ ورُعبٌ ورُعبٌ، فأعرض عنها،
 فلم يتذكر بما ذُكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما
 قدمت يده من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا
 أعظم ظلماً، من المعرض الذي لم تأت آيات الله، ولم يذكر
 بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف^(١) ظلماً من هذا، لكون
 العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك.

ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه
 لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشر مع علمه بها أن سد عليه
 أبواب الهداية، بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أعطية محكمة
 تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها فليس في إمكانه الفقه الذي
 يصل إلى القلب.

﴿وَفِي آثَارِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات،
 ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس
 لهدايتهم سبيل.

﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لأن الذي
 يرجي أن يجيب الداعي للهدى، من ليس عالماً. وأما هؤلاء،
 الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه،
 وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب
 والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه
 الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، وأن يحال بينهم
 وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر
 عن ذلك.

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر
 الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله
 بإحسانه، وأنه لو أخذ^(٢) العباد على ما قدمت أيديهم من
 الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل
 بالعقوبة، بل يمهّل، ولا يمهّل، والذنوب لا بد من وقوع
 آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا﴾ أي: لهم موعد،
 يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه،
 ولا ملجأ، ولا محيد عنه.

وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم
 بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا،
 غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا
 على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم،
 أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ أَهْلَكَتْهُمْ لَمَّا
 ظَنُّوا أَنَّهُمْ وَجَعَلْنَا لَمَهِلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وَجَعَلْنَا لَمَهِلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠١

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنَهُ إِنَّا غَدَاةٌ نَأْتِيكَ لَقِينًا مِنْ سَفَرِنَا
هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحَوْتَ وَمَا أُنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّ عَالِيءًا ثَارٍ هُمَا
فَصَصَا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ
عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لِمُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ
عَلَى أَنْ تَعْلِمَ مِنْ مِمَّا عَلِمْتُ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهَا
لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا أَمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ
قَالَ أَقَتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

بها زاد علمه، وحسن عمله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ ^(١) ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ [أي: من عندنا] ﴿عِلْمًا﴾. وكان قد أعطي من العلم، ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية، والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين الذين فضلهم الله على سائر الخلق، بالعلم، والعمل، وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى، قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه:

﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تَعْلِمَ مِنْ مِمَّا عَلِمْتُ رُشْدًا﴾ [أي: هل أتيتك على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع، على بواطن كثير من الأشياء، التي خفيت، حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه، من الأمور التي

يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [أي: لا أزال مسافرًا وإن طالت عليّ الشقة، ولحقتني المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبدًا من عباد الله العالمين، عنده من العلم، ما ليس عندك].

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُفْبًا﴾ [أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه].

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ [أي: هو وفتاه] ﴿مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا شِيبًا حُرْتُهُمَا﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فتم ذلك العبد، الذي قصدته، فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي: طريقه في البحر سربًا، وهذا من الآيات. قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيًا.

فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين، قال موسى لفتاه: ﴿إِنَّا غَدَاةٌ نَأْتِيكَ لَقِينًا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل، الذي وصلا به إلى مجمع البحرين، لم يجدا مس التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضًا، فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما، وجدا مس التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة، قال له فتاه:

﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ [أي: ألم تعلم حين أوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أُنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ لأنه السبب في ذلك] ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلًا فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [أي: لما انسرب في البحر، ودخل فيه، كان ذلك من العجائب].

قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا، فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت، وجد الخضر، فقال موسى:

﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [أي: نطلب] ﴿فَارْتَدَّا﴾ [أي: رجعا] ﴿عَالِيءًا ثَارٍ هُمَا فَصَصَا﴾ [أي: رجعا يقصان أثرهما، الذي نسيا فيه الحوت، فلما وصلا إليه، وجدا عبدًا من عبادنا، وهو الخضر، وكان عبدًا صالحًا، لا نبيا، على الصحيح].

آتيناه ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ [أي: أعطاه الله رحمة خاصة،

أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره، وأنت تقدر عليها؟! فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضر منه، فقال له: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحة.

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: سأخبرك بما أنكرت عليّ، وأنبك بأن لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

﴿أَنَا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرافة بهم ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه، ما فيها عيب، غصبها وأخذها ظلماً، فأردت أن أخرقها، ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

﴿وَأَمَّا الْفُلُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِيَ أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وكان ذلك الغلام، قد قدر عليه، أنه لو بلغ، لأرهب أبويه طغياناً وكفراً. أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه أو يحدهما على ذلك، أي: فقتلته، لاطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟ وهو وإن كان فيه إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال:

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَفَرُوا وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: ولذا صالحاً، زكياً، واصلاً لرحمه، فإن الغلام الذي قتل، لو بلغ لعقهما أشد العقوق، بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أقمته ﴿فَكَانَ لِمَلَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي: حالهما تقتضي الرافعة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين، عدما أباهما، وحفظهما الله أيضاً، بصلاح والدهما.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ أي: فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجاناً.

﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، آتاه الله عبده الخضر ﴿وَمَا قَعْلُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: أتيت شيئاً من قبل نفسي، ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

(١) كذا في النسخين، ومراد المؤلف - رحمه الله - النفي، أي: ما أتيت.

ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على أمرٍ، ما أحطت بباطنه وظاهره وعلمت المقصود منه ومآله؟! فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

فحينئذ قال له الخضر: ﴿إِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: لا تبدئي بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاء عن سؤاله، ووعدة أن يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك، سيبينه، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى:

﴿أَخْرَقَهَا لِنَارِكَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: عظيماً شنيعاً، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر:

﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسياناً فقال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا رَهْطِي مِن أَمْرِي غَشْرًا﴾ أي: لا تعسر علي الأمر، واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر، الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا قَرِياَ غُلَامًا﴾ أي: صغيراً ﴿فَقَتَلَهُ﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلاماً صغيراً، لم يذنب.

﴿قَالَ أَقَتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي: نكر مثل قتل الصغير الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحداً؟! وكانت الأولى من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر، معاتباً ومذكراً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

فقال [له] موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ فَلَا تُصَلِّحْنِي﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا﴾ أي: استضافاهم فلم يضيفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر أي: بناه وأعاده جديداً. فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَنَزَّلْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي:

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرته لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾
وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد، والأحكام،
والقواعد، شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله.
فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور،
فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في
طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم،
واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.
ومنها: البداية بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم - علم
الإنسان أهم من ترك ذلك - والاشتغال بالتعليم من دون تزود
من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.
ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية
المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.
ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا
اقتضت المصلحة الإخبار بطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من
كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان
الأمر على بصيرة، وإظهارًا لشرف هذه العبادة الجليلة، كما
قال موسى: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَتْلُعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
حُقُبًا﴾ وكما أخبر النبي ﷺ، أصحابه - حين غزا تبوك -
بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.
ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه
التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى
موسى: ﴿وَمَا أَتَسْنِينِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرُ﴾.
ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة
النفس، من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه
التسخط وكان صدقًا، لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا
نَصَبًا﴾.
ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكيًا فطنًا كيسًا،
ليتم له أمره الذي يريده.
ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله،
وأكلهما جميعًا، لأن ظاهر قوله: ﴿إِنَّا غَدَاْنَا﴾ إضافة إلى
الجميع، أنه أكل هو، وهو جميعًا.
ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه
بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره
لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ والإشارة إلى السفر
المجاوز، لمجتمع البحرين.
وأما الأول، فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر
على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم
فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة. فالظاهر أنهم باتوا

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرته لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾
وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد، والأحكام،
والقواعد، شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله.
فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور،
فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في
طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم،
واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.
ومنها: البداية بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم - علم
الإنسان أهم من ترك ذلك - والاشتغال بالتعليم من دون تزود
من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.
ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية
المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.
ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا
اقتضت المصلحة الإخبار بطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من
كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان
الأمر على بصيرة، وإظهارًا لشرف هذه العبادة الجليلة، كما
قال موسى: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَتْلُعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
حُقُبًا﴾ وكما أخبر النبي ﷺ، أصحابه - حين غزا تبوك -
بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.
ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه
التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى
موسى: ﴿وَمَا أَتَسْنِينِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرُ﴾.
ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة
النفس، من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه
التسخط وكان صدقًا، لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا
نَصَبًا﴾.
ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكيًا فطنًا كيسًا،
ليتم له أمره الذي يريده.
ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله،
وأكلهما جميعًا، لأن ظاهر قوله: ﴿إِنَّا غَدَاْنَا﴾ إضافة إلى
الجميع، أنه أكل هو، وهو جميعًا.
ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه
بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره
لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ والإشارة إلى السفر
المجاوز، لمجتمع البحرين.
وأما الأول، فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر
على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم
فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة. فالظاهر أنهم باتوا

عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال
موسى لفتاه: ﴿إِنَّا غَدَاْنَا﴾ فحيث تذكر أنه نسيه، في
الموضع الذي إليه انتهى قصده.
ومنها: أن ذلك العبد الذي لقيه، ليس نبيًا، بل عبدًا
صالحًا، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر مئة الله عليه بالرحمة
والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبيًا، لذكر
ذلك، كما ذكر غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾ فإنه لا يدل
على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون
لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ
أَرْضِعِ﴾، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَنِ بِوَيْتًا﴾.

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله [العبادة]^(١) نوعان: علم
مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، ونوع علم لدني، يهبه
الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه اللطف

على الشيء، حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية - التي من أفعال العباد - بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول «إن شاء الله».

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم، أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع: كما إذا كان فهمه قاصراً. أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها. أو لا يدركها ذهنه. أو يسأل سؤالاً، لا يتعلق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لا في حق الله، ولا في حقوق العباد لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها، وما سمحت به أنفسهم. ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر، ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية، في الأموال، والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها، أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها، في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض، الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه «يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير» ويراعى أكبر المصلحتين، بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً منه. وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه، وإيمانهما،

(١) في ب: لطريق. (٢) بدلاً من الجملة: (أنه يفوته... كثير من العلم) جاء في ب: (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في: أ مشطوبة.

خطاب، لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَعْبَكُ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبير، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جداً، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعليم ممن دونه فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل، للعلم الذي لم يتمهر فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة. فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله، وأعطاهم من العلم، ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص، كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه. فعلى هذا، لا ينبغي للفقهاء المحدث، إذا كان قاصراً في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ﴾ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق^(١) الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم^(٢)، فمن لا صبر له، لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر - يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبرة، بذلك الأمر، الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبراً بالأمر. ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم

ومنها: أن هذه القضايا التي أجزاها الخضر هي قدر محض أجزاها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرها جداً، وهي صلاح دينه: كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه، كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكرهه.

(٨٣-٨٨) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْيَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۝ إِنَّا مَكِّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْغَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغَبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّا أَنْتَ لَنَجِدُ فِيهِمْ حَسَبًا ۝ قَالَ أَمَا مِنْ ظُلْمٍ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ۝ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَجَمَلَ صُلَيْحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَوْ الْمُشْرِكُونَ، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْيَيْنِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب. أي: سأتلو عليكم من أحواله، ما يتذكر فيه، ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم يتله عليهم.

﴿إِنَّا مَكِّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكه الله تعالى، ومكنه من النفوذ في أقطار الأرض، وانقيادهم له ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له، لما وصل إليه، ما به يستعين على قهر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران. وعمل بتلك الأسباب، التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها على وجهها، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي، والعمل به، حصل المقصود، وإن عدما، أو أحدهما لم يحصل.

وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهذا، لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره القلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة، أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم، ذو عَدَدٍ وَعَدَدٍ ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاريها وأنحائها، فأعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حمئة، أي: سوداء، وهذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع، ووجد عندها، أي: عند

خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد، ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها، داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله، إتلاف بعض مال الغير»، كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال، افتداء للباقي، جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ثَكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكر لقوله: ﴿يَغْيِرُ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، بأن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَمِيبَهَا﴾. وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِرَ يَتِيمِينَ﴾، وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبتته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة، وسبب لبقاء الصلابة، وتأكيدها، كما أن عدم الموافقة، سبب لقطع المرافقة.

حشرهم، وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين، ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فأما الكافرون - على اختلافهم - فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبدًا.

(١٠١، ١٠٠) ولهذا قال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَبَرَزَتِ الْجَنَّةُ لِلْعَاوِينَ﴾^(١) أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها، وحميمها، وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب، ما تبكم له القلوب، وتصم الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: ﴿فَلَوْنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُوًا إِلَيْكَ﴾ وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَنْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ﴾.

﴿وَكَاؤُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يقدرُونَ على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن المبغض لا يستطيع أن يلقى سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم^(٢) سمع ولا بصر، ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسلة، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيرًا.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ إذا اعتدنا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿وهذا برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين الكافرين الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء، شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام الإنكاري المتقرر بطلانه في العقول: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا يكون ذلك، ولا يوالي وليي الله، معاديًا له أبدًا، فإن الأولياء موافقون لله، في محبته، ورضاه، وسخطه، وبغضه، فيكون على هذا المعنى، مشابهًا لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ قالوا: سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئَامِن دُونِهِمْ.﴾

فمن زعم أنه يتخذ وليي الله وليًا له، وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله، المناذبون لرسله، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم، وينفعونهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟

(١) في النسختين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق قلم. (٢) في النسختين: له.

أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: مما تبدلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أَجْعَلِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: مانعًا من عبورهم عليكم.

﴿عَاثُوْا زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ النار أي: أوقدوها إيقادًا عظيمًا، واستعملوا لها المنافخ، لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، الذي يريد أن يلصقه بين زبر الحديد ﴿قَالَ عَاثُوْا فُفْرَغْ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ أي: نحاسًا مذابًا، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكامًا هائلًا، وامتنع به مَنْ وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه، لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والآخر الجليل، أضاف النعمة إلى موليتها وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه عليّ.

وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا مَنَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقارهم، واعترفوا بنعمة الله، كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ، مع البعد العظيم قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ بخلاف أهل التجبر والتكبر، والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم أشرًا وبطرًا. كما قال قارون - لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّةً﴾ أي: دكة فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

(٩٩) ﴿وَنَرَكُنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يُبْرِجُ فِي بَعْضٍ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج. وأنهم إذا خرجوا على الناس - من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها - يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّعَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرُونَ ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿وَيُفْجِعُ فِي الصُّورِ جَمْعَهُمْ جَمًّا﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ○ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ○ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم

سُورَةُ الْكَافِرِينَ

الْكَافِرِينَ

٣٠٤

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٠٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَاهُمْ مَجْعًا ﴿١٠٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١١١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١١٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١١٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ بِمَا كُفَرْتُمْ وَأَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١١٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَادًّا لَكُمْتُ رَبِّي لِنَفْدِ الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ نَقْدِكَ كِمْتُ رَبِّي وَلَوْ جَنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ نُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَن كَانَ رِجْوَا لِقَاءِ رَبِّهِمْ فليَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِوَعْدِهِ أَحَدًا ﴿١٢٠﴾

هذا حسابنا باطل، وظن فاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس يدهم من النفع والضرر شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ﴾ ونحو ذلك من الآيات التي يذكرها: فيها، أن المتخذ من دونه وليًا ينصره ويواليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل لبعض مقصوده.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي: ضيافة وقرى، فبئس النزول نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

(١٠٦-١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ بِمَا كُفَرْتُمْ وَأَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا ﴿١١٦﴾ أي: قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار -: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالًا على الإطلاق؟

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بطل واضمحل كل ما عملوه، من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله، ومعاداة؟ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به، وبملأئحته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

﴿فَحَبِطَتْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ لأن الوزن فائده: مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء، لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤَيَّدٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، لكن تعد أعمالهم، وتحصى، ويقرونها بها، ويخزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ﴾ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة ﴿وَزَنًا﴾ لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزولًا يستهزؤون بها، ويسخرون^(١) منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية فانعكس أمرهم، وتسعوا وانتكسوا في العذاب.

ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم فقال:

(١) في النسختين: ويستخرون.

(١٠٨، ١٠٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١١٨﴾ أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان، والعمل الصالح - لهم جنات الفردوس. يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب، لمن كمل الإيمان، والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون. ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدین، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة.

وأما كلام الله، فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأئى سعة وعظمة تصورتها القلوب، فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمقتاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: لست بآله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله.

و﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ عبد من عبيد ربي ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما إلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا﴾ أي: لا يراني بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وآخره، وقد فاتته القرب من مولاه، ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد.

فجنة الفردوس تُزَلُّ وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل، وأكبر، وأعظم، من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة.

وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم.

فلله تلك الضيافة، ما أجملها وأجملها، وأدومها، وأكملها!! وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً، يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتها، تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب، آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت^(١) فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: ﴿تَخْلِدِينَ فِيهَا﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿لَا يَتَغَوَّنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أي: تحولاً ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

(١٠٩) ﴿قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي: قل لهم مخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: وأشجار الدنيا، من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقلام ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ وتكسرت الأقلام ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد.

وفي الآية الأخرى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية،